مجلة كلية

الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة

العدد السابع
1990 م

- واقع البحث العلمي ومشكلاته
- قصة دخول الإسلام إلى رواندا
- صورة المسيحية في دراسات غربية
- مفاهيم أساسية في فكر مالك بن نبي
- التراث الإسلامي والاستشراق

عصر الحروب الصليبية

الشرق الأدنى من القرن الحادي عشر إلى عام 1517 م

P. M. Holt, The Age of the Crusudes, Longman- 1986

تأليف الأستاذ ب.م. هولت

صدر في الآونة الأخيرة (1986 م) عن دار لونجمان للنشر كتاب ممتع عنوانه (عصر الحروب الصليبية ـ الشرق الأدنى من القرن الحادي عشر إلى عام 1517 م) للأستاذ/ ب.م. هولت أستاذ تاريخ الشرقين الأدنى والأوسط بمعهد الدراسات الشرقية والإفريقية بجامعة لندن. ويجيء هذا الكتاب ضمن سلسلة من ستة كتب تصدر عن دار لونجمان، ويشرف على تحريرها الأستاذ هولت. وكتابه هو الكتاب الثاني في السلسلة التي بدأت بكتاب من تأليف هيوكنيدي عن تاريخ الشرق الأدنى من ظهور الإسلام إلى القرن الحادي عشر.

يقول المؤلف ب.م. هولت في مقدمة كتابه (عصر الحروب الصليبية) «إن الكتاب يستهدف أن يقدّم للطالب والقارىء العامّ عرضا للتاريخ السياسي لبلدان شرقي البحر المتوسط من بداية الحروب الصليبية ـ في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي ـ إلى بداية الفتح العثماني لبلاد الشام ومصر عام 6-1517 م. ومع أن كتباً كثيرة قد ألّفت عن بعض جوانب هذه الفترة ـ وبخاصة الحروب الصليبية ـ فإن جوانب أخرى ظلّت غامضة. فلا يوجد في اللغة الإنكليزية ـ مثلاً ـ بحث حديث شامل عن سلطنة المماليك، مع أن المماليك كانوا القوة الكبرى في شرقي البحر المتوسط لمدة قرنين أو أكثر من الزمن». ويضيف المؤلف بأنه يأمل «في

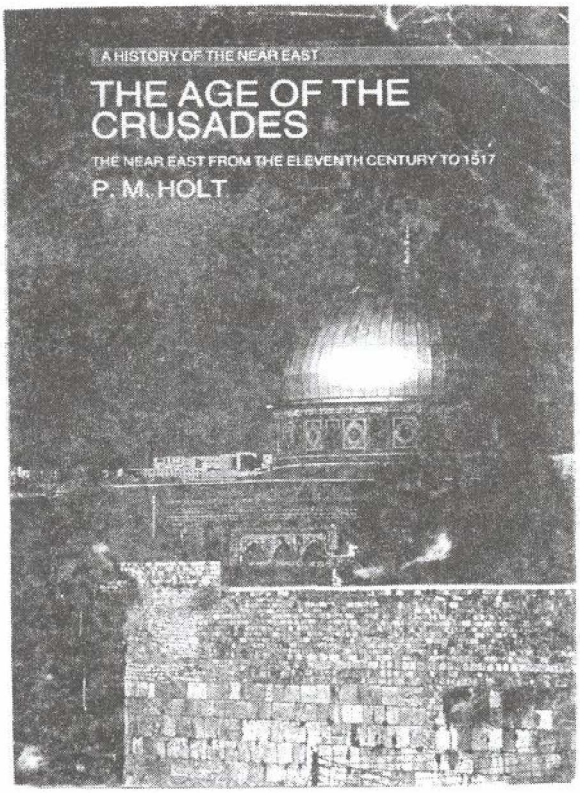

أن يكون الكتاب مدخلاً لتاريخ فترة شيقة ـ فهي كذلك بالنسبة لتاريخ أوروبا في العصر الوسيط، حيث واجه الحكام الكثير من المشاكل السياسية والإدارية التي واجهها الحكام في الشرق الأدنى، كما إنها كذلك تهمّ الباحث في تاريخ الشرق الأدنى الحديث الذي ورث سكانه ماضي هذه المنطقة».

إن الكتاب ـ وهو يضمّ 250 صفحة من القطع المتوسط ـ يشتمل على واحد وعشرين فصلاً، فضلاً عن ستة جداول بالأسر الحاكمة وأربع خرائط، وثبت واف بالمصادر والمراجع، وجامع مفردات، وفهارس بالأعلام والأماكن التي ورد ذكرها في الكتاب. ومن بين الفصول الممتعة في الكتاب الفصل الأول الذي يتناول فيه المؤلف الوضع في الشرق الأدنى عشية قيام الحروب الصليبية. والفصلان السادس والسابع، وفيهما يتحدث عن نور الدين محمود زنكي وصلاح الدين الأيوبي، والفصل الحادي عشر، الذي يتحدث فيه عن فترة حكم السلطان المملوكي الظاهر بيبرس، والفصل الثاني عشر، وفيه يتحدث عن قيام أسرة قلاون ونهاية الوجود الصليبي في بلاد الشام. وفضلاً عن ذلك، فإن في الكتاب فصلين مهمّين تناول فيهما المؤلف ـ بشيء من التفصيل ـ نظم الحكم السائدة في عهود الزنكيين والأيوبيين والمماليك، كما خصص فصلاً تحدث فيه عن العلاقات التجارية والدبلوماسية لدولة المماليك. كما أوجز المؤلف في الفصل السادس عشر ـ وبشكل منسق مفيد ـ تاريخ العلاقات بين مصر وبلاد النوبة جنوبيها، من الفتح الإسلامي إلى أواخر القرن الرابع عشر للميلاد.

وفي خاتمة الكتاب، يؤكد المؤلف بأن المحور الرئيسي المميّز للفترة موضع الدرس ـ والتي امتدت لأكثر من أربعة قرون ـ هو اتجاه بلدان شرقي البحر المتوسط في طريق الوحدة وتدعيمها، على يد حكومة مركزية إسلامية واحدة، بعد أن كان التجزؤ والفرقة يسودان تلك البلدان قبيل قيام الحروب الصليبية.

وقد أصاب المؤلف إذ ذكر بأن الدعوة إلى

الجهاد ضد الغزاة الصليبيين لم تسمع إلا بعد وصول الصليبيين ببضع سنوات، ولم تصدر تلك الدعوة من مجالس الحكام، بل صدرت عن محافل العلماء والفقهاء. فالفقيه السلمي ـ المدرس في الجامع الأموي بدمشق ـ قرأ على مستمعيه في الجامع الأموي كتاباً ألّفه في وجوب الجهاد والحض عليه، وفيه أبدى وجهة نظره في أن قدوم الفرنجة إلى أرض الإسلام لم يقتصر على بلاد الشام، بل شمل كذلك كلاً من جزيرة صقلية والأندلس الإسلاميتين، حيث بدأت الهجمة الصليبية بعد أن علم الإفرنج بضعف ذينك البلدين نتيجة للفرقة والانقسامات السائدة فيهما، وكذلك كان الحال في بلاد الشام، مما أغرى الصليبيين بغزوها.

وفي الفصلين اللذين عقدهما المؤلف لدراسة النظم السائدة في مصر وبلاد الشام على عهد الزنكيين والأيوبيين والمماليك، تحدّث ـ في جملة ما تحدّث عنه ـ عن الإقطاع، والعناصر التي كان يتكوّن منها الجند، ودواوين الرسائل والاستيفاء والإشراف والعرض. كما تحدث عن انتشار المدارس على عهد نور الدين محمود زنكي الذي أنشأ كذلك دار ـ الحديث المعروفة باسمه ودار العدل، وكان يجلس فيها بنفسه يومين في الأسبوع للنظر في المظالم، وانتشرت الطرق الصوفية ورباطاتها وزواياها، وفي مقدمتها السهروردية والرفاعية والقادرية. كما تحدث المؤلف عن القضاء والحسبة، فذكر أن وظيفة المحتسب أخذها الصليبيون من المسلمين، فكان في الإمارات الصليبية على الساحل محتسب من الإفرنج يتولّى الإشراف على الأسواق.

إن كتاب (عصر الحروب الصليبية) للأستاذ هولت كتاب مفيد لطلبة الجامعات الذين يدرسون تاريخ مصر وبلاد الشام في فترة القرون الأربعة التي سبقت مجيء الأتراك العثمانيين عام 1517 م. والكتاب يركّز على التاريخ للدول الإسلامية وحكامها في المقام الأول، دون التوسع في الحديث عن الإمارات الصليبية. ومن مزايا الكتاب أن مؤلفه يعتمد اعتماداً كبيراً على المصادر العربية الأصلية، كابن الأثير، وأبي الفداء، وابن القلانسي، والعماد الأصفهاني، وابن واصل، وأبي شامة، وأسامة بن منقذ، والمقريزي، وهو يحلّل ويفسّر مادة هذه المصادر التاريخية ويقيّمها ويقتبس فقرات عديدة منها تولّى اختيارها وترجمتها بنفسه إلى اللغة الإنكليزية.

الدكتور أمين توفيق الطيبي
جامعة الفاتح الجماهيرية العظمى